أهمية التعرف إلى أحوال السكان

إن الدعوة الإسلامية هى رسالة الأنبياء والرسل، وهى أيضا رسالة العلماء، لأن العلماء ورثة الأنبياء، ومن هنا نقف على أهمية الدعوة، ومكانة الدعاة.

وللدعوة الإسلامية مكانتها فى نفوس المسلمين جميعا، فإن سعادتهم دنيا وآخره ترتبط بها ارتباطا وثيقا.

ومن هنا كانت مسئولية الدعاة وأهميتهم، وكان تفاوتهم فى نقل الدعوة بمنهجها الربانى البليغ، وبأسلوبها السمح الكريم، وبما تحتوى عليه من علوم دينية وأخرى دنيوية لابد للدعاة من معرفتها، حتى تكون الدعوة فى إطارها الصحيح، ويكون الدعاة قادرين على نقلها إلى كل البلاد والعباد على نحو دقيق وعميق، لا تشوبة شائبة قصور أو خلل.

وواضح أن لكل مقام مقالا، وإذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن أولى الناس بالبلاغة هم العلماء الدعاة، لأنهم ورثة الأنبياء، ولأنهم يقومون على نقل أشرف تراث فى الوجود.

ومن أهم ما ينبغى على الدعاة أن يقفوا عليه بين ما يتعلمونه وما يتدربون عليه من علوم، التعليم السكانى، والتعرف على أحوال سكان البلد الذى يدعونه وعلى عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم والمعلومات التى يمكن جمعها عنهم وعن معتقداتهم، لأن الدعاة مثلهم مثل الأطباء قبل أن يصفوا الدواء للمريض، لابد أن يحددوا نوع المرض وما يلزمه من دواء، وبعد تشخيص المرض، ومعرفة نوع الداء يتحدد الدواء وكذلك الحال بالنسبة للدعاة مع الذين يدعونهم، لابد من التعرف على السكان وأحوالهم وسياساتهم وعاداتهم، وما ينتشر فيهم من رذيلة أو تقصير فى بعض أمور العبادات أو المعاملات.

فكما أن الطبيب لابد له من التعرف على أحوال مريضه وتشخيص الداء، لأن ما يصلح من دواء لمريض قد لا يصلح للأخر، وما يصلح من كمية لإنسان قد لاتصلح لغيره، فكذلك أيضا الداعية لابد أن يلم بمعلومات وافية عن سكان الموقع أو البلاد الذين يدعوهم حتى يستطيع أن يقدم لهم الزاد الروحى الذى يليق بكل واحد منهم.

وهكــذا نرى أنــه لابد من التعرف على المعلومات الســكانية حتى تكون الدعوة ملائمة ومنسقة من الذين تدعوهم، وحتى يتعرف الدعاة على مواطن الداء، وعلى ما يحتاجه أهل كل منطقة أو بلد من التوجيهات اللائقة بهم.

ولقد كان قدوة الدعاة ســيدنا رسول الله ﷺ يسأله أناس كثيرون، وكان السؤال واحدا فــى كل مرة ولكن إجابته كانت تختلف من إنســان لأخر، ومــن وقت لأخر، ومن مكان لمكان، والسبب فى هذا هو أن الرسول ﷺ كان يجيب كل سائل بما يليق بحاله، ويجيب أهل كل مكان بما يليق بحالهم وهكذا....

فقد ســأل رجل رسول الله ﷺ: (أى الإســلام خير؟) قال: (تطعم الطعام وتقرأالسلام على من عرفت ومن لم تعرف)(١).

وفى حديث أخر: عن أبى موســى رضي الله عنه قال: قالوا يارسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال: (من سلم المسلمون من لسانه ويده)(٢) وهكذا كان يجيب سائل بما يكون أفضل فى حق السامع أو السائل أو أهل المكان الذين يحدثهم، فربما يكون قد ظهر من أحدهم قلة مراعاة ليده ولســانه وإيذاء المســلمين، وربما يكون ظهر من الأخر إمســاك عن الطعام والبعد عن السلام أو ما فيه استعلاء فأجابه على حسب حاله، وقد يكون السائل يريد من وراء سؤاله أن يعرف أهم المنهيات والأمور التى يجب عليه تركها فأجابه بقوله (من ســلم المســلمون من لســانه ويده) ويكون الأخر ســأل ليعرف خير الأعمال وأفضلها، فأجابه بإطعام الطعام وإقراء السلام، ومن المعلوم أن الإطعام مستلزم لسلامة اليد، والسلام مستلزم لسلامة اللسان.

وفــى حديث أخر يســأله أبــو ذر رضي الله عنه: أى العمل أفضل؟ فقــال ﷺ: (إيمان بالله وجهاد فى ســبيله). قلت: فــأى الرقاب أفضل؟ قال: (أغلاها ثمنا وأنفســها عند أهلها) قلت: فإن لم أفعل؟ قال: (تعين صانعا أو تصنع لأخرق)، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: (تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك)(٣).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه البخارى.

وهكـذا نـرى اختلاف الإجابة باختلاف الأشـخاص وأحوالهم، مما يدلنا على أن دراسـة أحوال السـكان وأهل البلاد أو المواقع الذين نتجة إليهم بالدعوة أمر ضرورى، ولذا فإن الدعاة فى حاجة ضرورية إلى معرفة تاريخ العالم وجغرافيته وأحوال السكان فيه فإن لكل مقام مقالا.

❑❑❑

عالمية الإسلام

لقد جاءت الدعوة الإسلامية إلى جميع الناس ولم تختص كالدعوات السابقة بقوم دون قوم بل جاءت عامة فى الزمان وفى المكان فهى خالدة باقية إلى أن يقوم الناس لرب العالمين إنها دعوة عالمية لجميع أجناس الأرض، وقد كفل الله تعالى لها خصائص عالميتها وعمومها، بالكتاب الذى أنزله، والرسول الذى أرسله.

والقوم الذين بعث فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، والزمان الذى أشرقت فيه الدعوة الإسلامية، والمكان الذى هبط عليه الوحى بها، واللغة التى نزل القرآن الكريم بها.

فأما الكتاب الذى أنزله الله تعالى، فهو القرآن الكريم، الذى يمثل كلمة الله الأخيرة إلى أهل الأرض جميعا ودستوره السماوى للبشرية جمعاء وإلى يوم القيامة. فأنزل الله تعالى القرآن بالحق، وكان مصدقا للكتب السماوية التى أنزلت من قبله، ومهيمنا عليها أى أنه مؤتمن على الكتب وحاكم على ما قبله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جمع الله فيه محاسن الكتب السابقة وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره كما يقول الإمام ابن كثير. وتتضح هذه الحقيقة من قول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١) ومن قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (٢) وقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأنه أحسن ما أنزل إلى الناس من ربهم فقال جل شأنه: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾(٣).

ولأن القرآن الكريم هو الدستور السماوى الخالد إلى يوم القيامة تكفل رب العزة سبحانه وتعالى بحفظه من أى تغيير أو تحريف فحفظه الله تعالى فى الصدور وفى السطور قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٤).

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة المائدة ٤٨.

(٣) سورة الزمر ٥٥.

(٤) سورة الحجر ٩.

ووضح رب العزة سبحانه عالمية القرآن الكريم، وبين سمة العموم والشمول فيه إذ يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [1]. ووصف الله القرآن الكريم بأنه «الفرقان» لأنه فرق بين الحق والباطل كما فرق نقل العرب من عهد محلى إلى عهد عالمى، حيث بلغت الإنسانية نضجها ورشدها، إنه عهد انتهت فيه الإقليمية، وابتدأت فيه عالمية الدعوة، وختام الرسالة بمعجزة عقلية دائمة خالدة، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[2].

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدعو الناس راجيا أن يكون أكثر الأنبياء تابعا، ويربط هذا بأن آيته الكبرى ومعجزته العظمى هى ما أوحاه الله إليه: إنه القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أحسن والذى جاء تبيانا لكل شئ والذى ختم الله به الكتب السماوية فقال صلوات الله وسلامه عليه: «مامن الأنبياء نبى إلا أعطى من الأيات ما مثله أمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[3]. وأما الرسول الذى أرسله الله تعالى بالدعوة العامة الخالدة فهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد وضح القرآن الكريم أنه خاتم النبيين حيث قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[4] وبين القرآن الكريم أن كل رسول من الرسل السابقين كان يبعث إلى قوم معينين ولم يبعث برسالة عامة، فلاحظ هذا فيما قص علينا القرآن من أنباء الرسل فتراه يحدد لكل رسول قوما معينين:

ـ ففى شأن نوح عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [5].

---

(١) سورة التكوير ٢٧.

(٢) سورة الفرقان١.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) سورة الأحزاب ٤٠.

(٥) سورة هود ٢٥.

ـ وفى شأن هود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (1).

ـ وفى شأن صالح عليه السلام قال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾(2).

ـ وفى شأن شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (3).

ـ وفى شأن عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾(4). – أما فى شأن خاتم الأنبياء والمرسلين الذى جاءت رسالته عامة وخالدة فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(5) وتحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه بما اختصه الله تعالى به من عموم بعثته وغير ذلك من الخصوصيات حين قال صلوات الله وسلامه عليه: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(6) فتحدث بنعمة الله عليه وعلى الناس حيث بعث إلى الناس عامة، وفى حديث أخر يقول «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»(7) وفى بعض الأحاديث ما يفيد ختمه للرسل وعموم رسالته فى قوله ﷺ: «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون»(8) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون:

(1) سورة هود 50.
(2) سورة هود 61.
(3) سورة هود 84.
(4) سورة الصف 6.
(5) سورة سبأ 28.
(6) رواه البخارى.
(7) رواه مسلم.
(8) رواه مسلم.

هلا وضعت هذه اللبنة قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1]. وهكذا دل القرأن والسنة على أن رسول الله ﷺ بعث للناس كافة وأن الله تعالى ختم به الأنبياء والمرسلين، وانعقد إجماع المسلمين قديما وحديثا على ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ وأصبح هذا معلوما من الدين بالضرورة. فكل من ادعى بعد سيدنا محمد ﷺ النبوة فهو دجال مضل، لأن الله ختم به النبيين والمرسلين فلا نبى بعده، وهذا ما أكده القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعى خلافه. وأما القوم الذين بعث فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالدعوة العامة الخالدة فهم «العرب» قبل غيرهم وكانوا يتميزون بقيم راسخة فيهم منها: الوفاء والنجدة والإباء والسخاء والعفة، وإن كانت جاهليتهم ـ أحيانا كثيرة تطغيهم أو تجعلهم يضلون، لكنهم مع هذا كانوا أحسن حالا من الأمم الأخرى التى كانت تموج بالفلسفات المتصارعة «كفارس» أو النزعات الاستعمارية «كالرومان»، لقد كان العرب أهدأ حالا من غيرهم، وكانت لهم فطرتهم وطبيعتهم التى كانت أحسن من غيرهم.

– وأما الزمان: فإنه جاء بعد فترة من الرسل، حيث بلغت الإنسانية نضجها ورشدها، وبعد أن مر على الإنسانية فترات كثيرة ورسالات عديدة كل رسالة تنشد الإصلاح والخير، وتأخذ بيد الإنسانية إلى مراقى الرشد والهدى حتى جاءت الدعوة الخاتمة التى أصبحت الأمة بمنهاجها خير أمة أخرجت للناس.

– وأما المكان: فهو جزيرة العرب لموقعها الجغرافى حيث تقع فى النقطة الوسط بين سائر الأمم من حولها، وهى الأمة الوسط بين حضارات الأمم السابقة فلا هى ذات حضارة مادية بحته ولا روحانية بحته بل هى الأمة الوسط قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2] وفى بقعتها المباركة فى مكة المكرمة توجد الكعبة المشرفة التى هى نقطة الوسط للعالم كله لترسل أشعة الهدى والخير إلى من حولها من جميع بقاع الدنيا وقارتها المترامية. ولو شاء الحكيم الخبير أن يهبط الوحى فى غير هذه البقعة لهيأ لها الأسباب فهو الخلاق

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) سورة البقرة ١٤٣.

العليم، ولكن كانت الحكمة أن تكون البيئة أمية بالقياس إلى الأمم الأخرى حتى لا يتسرب إليها شئ من الحضارات الأخرى أو الفلسفات التى عند غيرها فيتقول البعض بأن هذه الدعوة الإسلامية ليست وحيا سماويا أو يرتاب البعض ويدعى أنها من تأثير الحضارات الموجودة أو الثقافات القائمة، ولقد أشار القرآن إلى ذلك فى قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[1] فكانوا أميين فى الأغلب الأعم، وهى الحكمة فى كون رسول الله ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب حتى لايكون لأى مخلوق تعليم له ولا فضل عليه بل إن ربه وحده هو الذى يعلمه ويوحى إليه، ولو لم يكن أميا لارتاب أهل الباطل وادعوا أنه جاء بهذا الوحى من الأخرين قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

كما يتمتع مكان الدعوة بأنه الذى يقع فيه البيت الحرام أول بيت وضع للناس الذى هو قبله المسلمين، تهوى إليه أفئدة الموحدين وفى تلك البقعة تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام فكان الأوفق أن تكون الدعوة العامة الخاتمة فى هذه البقاع المباركة.

ـ وأما اللغة التى نزل بها الوحى الإلهى فهى اللغة العربية حيث نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين. والناظر إلى اللغة العربية، وما تميزت به من خصائص، وقارن بينهما وبين سائر اللغات الأخرى، يرى أن اللغة العربية تفردت بخصائص لا توجد فى غيرها،فكانت جديرة أن تتشرف بكونها الوعاء الذى حمل الوحى الإلهى وجاء بها العبير القرآنى لفظا ومعنى وحرفا وتراكيب وأساليب عجز عن الإتيان بمثل القرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله سائر الخلق من إنس وجن وفصحاء وأدباء وكانت اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بخصائصها العظيمة، ورحم الله الشاعر العربى الإسلامى حافظ إبراهيم شاعر النيل حين قال عن اللغة العربية:

(١) سورة الجمعة ٢.

(٢) سورة العنكبوت ٤٨.

وسعت كتاب الله لفظا وآية   وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامنٌ   فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

❑❑❑

الإجتهاد .. والتطور

إن أول مصادر التشريع الإسلامى القرآن الكريم، فهو المصدر الأول الذى تؤخذ منه الأحكام الشرعية، ثم السنة النبوية الصحيحة فهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى، لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] وهذان هما المصدران الأصليان، أحدهما: كتاب الله تعالى الذى أنزل متواترا بلفظه ومعناه، والثانى وهو الحديث النبوى منه ما هو توقيفى نزل معناه من عند الله تعالى ومنه ما هو توفيقى أخبر به رسول الله ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[2].

وعن هذين المصدرين يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى»[3]. وإلى جانب هذين المصدرين، كانت مصادر أخرى، اجتهد فيها الأئمة عبر عصور التاريخ وأعملوا الفكر نتيجة تطور الحياة، وما يستدعيه ذلك من اجتهادات فى بيان الحكم الشرعى لكل ما يستجد فى حياة الناس من أمور لم تكن فى القرآن الكريم ولا فى السنة الصحيحة، فاجتهد العلماء بشأنها، ومن هنا ظهرت تلك المصادر الأخرى مثل: «الاجتهاد» و«الإجماع» و«القياس»... وهكذا...

– أما الاجتهاد: فهو بذل العالم المجتهد أقصى طاقته العلمية فى استنباط حكم شرعى من الدليل بحيث يرى أنه لا زيادة على ذلك، ويتسع مجال الاجتهاد فيشمل ما لم يرد بشأنه نص فى القرآن أو السنة الشريفة. ومما يدل على أهمية الاجتهاد والدعوة إليه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[4] فأمر الله تعالى فى الآية الكريمة بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ وذلك بالتمسك بالكتاب والسنة وأمر بطاعة أولى الأمر فى غير معصية الله تعالى فلا

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة النجم ٣، ٤.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك وابن عبد البر فى جامع بيان العلم.

(٤) سورة النساء ٥٩.

طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وفى قوله تعالى: «وأولى الأمر منكم» ما يفيد أن أولى الأمر الذيـن تجب طاعتهم يجـب أن يكونوا منا والمخاطبون فى الأيـة الكريمة هم المؤمنون «يا أيها الذين أمنوا...» فشـرط طاعتهم أن يكونو مؤمنين «فإن تنازعتم فى شـئ فردوه إلى الله والرسول» أى إذا حدث اختلاف فارجعوا فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم. وواضح أن قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] يفيد أنهم عندما يختلفون فى حكم من الأحكام لا يلجأون إلى الهوى، بل يجتهدون فى استنباط الحكم من روح الآية والحديث بالبحث عما قد يكون غير واضح أو يكون غائبا عن العقول أو بتطبيق القواعد العامة بإلحاق الشـبية بشبيهه. ومن الأدلة على جواز القياس من السنة النبوية: ما روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له:كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضى بما فى كتاب الله قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسـنة رسـوال الله ﷺ، قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيى ولا ألو، قال معاذ: فضرب رسـول الله ﷺ صدرى وقال: «الحمد الله الذى وفق رسـول الله لما يرضى الله ورسـوله»[2] كما يدل العقل أيضا على جواز الاجتهاد، لأن الشريعة الإسلامية جاءت لكل زمان ومكان وهى خاتمة الشرائع، ومما لا شك فيه أن الحوادث والأمور التى تجد فى الحياة تحتاج إلى بيان حكم الشريعة فيها وهذا بالاجتهاد فى إلحاقها بنظائرها مما ورد بشأنه نص.

ومـن أمثلة الاجتهاد فى عهده ﷺ: ماروى عن أبى سـعيد الخدرى رضي الله عنه قال خرج رجلان فى سـفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيدا طيبا فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يعد الأخر ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال للذى لم يعد: «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذى توضأ وأعاد: «لك الأجر

(١) سورة النساء ٥٩.

(٢) رواه أبو داود والترمذى والدارمى.

مرتــين»[١] فأقــر كلا منهما على اجتهاده ولم يزد على أحــد منهما اجتهاد الذى اجتهده. والمراد بقوله: «أصبت السنة» أى الشريعة الواجبة ومعنى «وأجزأتك صلاتك» أى كفتك عن القضاء، والإجزاء معناه: أن يكون الفعل مسقطا للإعادة.

ومن اجتهاد الصحابة رضى الله عنهم

اجتهاد سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى موضوع المرتدين الذين منعوا الزكاة مع إقرارهم بالإســلام، وإقامتهم للصلاة، واجتهاد أبو بكر رضى الله عنه فى أن يقاتلهم حتى يؤدوا الزكاة التى كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ[٢] – بسنده – أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رســول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفســه إلا بحقه وحســابه على الله» قال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر رضي الله عنه: فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق[٣].

ومن اجتهـادات ســيدنا عمر رضي الله عنه: «ما روة ابن عبــاس رضى الله عنهما أن الطلاق الثــلاث دفعــة واحدة كان يعــد واحدة على عهد رســول الله ﷺ وعهد أبى بكر رضي الله عنه وســنتين من خلافة عمر رضي الله عنه... ثم وجد عمر أن الناس قد أكثروا منه مع مخالفته لما شرع الله فقال: إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم تأديبا للمطلقين، وزجرا لغيرهم. ومن ذلك أيضا: اجتهاده فى عام المجاعة فى عهده حيث

(١) رواه النسائى وأبو داود، وهذا الحديث لفظ أبو داود.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه البخارى.

كثرت السرقات فأوقف الحد وهو قطع يد السارق أو السارقة المذكور فى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[1]

أنواع الاجتهاد

والاجتهاد نوعان: اجتهاد فردى، واجتهاد جماعى:

فأما الاجتهاد الفردى: فهو أن يجتهد فرد فى مسألة من المسائل كاجتهاد معاذ رضي الله عنه عندما بعثه الرسول ﷺ إلى أهل اليمن. ومثل اجتهاد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى تقسيم العطاء بين المهاجرين والأنصار... وأمثلة هذا النوع كثيرة.

وأما النوع الثانى وهو الاجتهاد الجماعى فهو كل أمر اتفق عليه المجتهدون كاتفاق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على إمامة أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وقتال ما نعى الزكاة، وما إلى ذلك.

الإجماع

والإجماع لغة: التصميم، أو جمع الكلمة على أمر... وفى الاصطلاح: هوأن يتفق أهل الاجتهاد من علماء الأمة الإسلامية، بعد رسول الله ﷺ على حكم شرعى.

(حجية الإجماع)

ويرى جمهور العلماء أن الإجماع حجة شرعية ويجب العمل به ومما يدل على حجية الإجماع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2]. ومصادر الإجماع

(١) سورة المائدة ٣٨.

(٢) سورة النساء ١١٥.

أمـران: الأول: القياس، وذلـك بأن يقيس المجتهد مالا نص فيـه، على ما فيه نص. والثانى: رعاية المصلحة، كما حدث عندما تحرج أبو بكر فى جمع القرآن قائلا: أفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ فقال عمر: إنه أمر لا ضرر فيه بل فيه الخير.

القياس

والقياس لغة: التقدير... وفى الإصطلاح: فهو أن يشـارك أمر لا نص فيه أمرا أخر فيه نص فى علة الحكم وإلحاقه به ونلاحظ أن القياس يشمتل على أركان أربعة:

الأول: المقيس وهو الذى يراد إلحاقه بغيره.

الثانى: المقيس عليه وهو الذى ورد نص على حكمه.

الثالث: الحكم وهو ما اشتمل عليه النص.

الرابـع العلة: وهى التى يبنى الحكم على أساسـها ومثال القيـاس تحريم غير الخمر مـن كل مـا فيـه علتها من السـكر وغيبة العقـل، فالخمـر ورد النص القرآنى بشـأنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1] وغيرها من نبيذ الشـعير أو التمر وغير ذلك من المشـروبات والمطعومات والحبوب الحديثة كل ذلك يقاس على الخمر.

ومن أدلـة القياس: قوله تعـالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[2]. فنهى عن قربان النساء فى المحيض لعلة هى الأذى والضرر فقد ذكر الحكم بعلته مشـيرا إلى أنه حيث وجدت العلة وجد الحكم وهناك بعض الأيـات التى فيها القياس كقوله تعـالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[3]. ومـن السـنة ما روى أن امرأة من جهينه جاءت إلى

(١) سورة المائدة ٩٠.

(٢) سورة البقرة ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران ٥٩.

النبى ﷺ فقالت إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ « قال ﷺ: نعـم حجـى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيتـه؟ أقضوا حق الله فإنه أحق بالوفاء».ومـن مراعاة الإسـلام لتطـور الحياة ودعوة علماء المسـلمين إلى الوصول إلى ما فيه الخير لحياتهم والمناسـب لزمانهم ومكانهم أنه يأمر بالأمر أو التوجية على سـبيل العموم ويدع كيفية التنفيذ دون تحديد ليحددها أهل كل عصر بما يناسـب عصرهم وبلدهم فمثل أمر الله تعالى بالشورى فى قوله سبحانه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [1] وفى قوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2]... ولكنه لم يحدد طريقة معينة للشـورى ولا شـكلا محددا حتى لا يتقيد الناس بالتحديد وقد يكون فى تنفيذه مشـقة عليهـم فى زمن من الأزمان أو فى مكان من الأمكنة لأن الحياة تتغير وتتطور... بل إن مرونة التشريع الإسلامى تصل إلى درجة أنه قد تخفف عن الإنسان بعض العقوبات بل وتتحمل عنه بعض ما لا يستطيع فمن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسـول الله ﷺ إذا جاء رجل فقال: يارسول الله: هلكت: قال: مالك؟ قال: وقعت على امرأتى وأنا صائم فقال: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا قال فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا قال: هل تجد إطعام ستين مسـكينا؟ قال: لا قال: اجلس فأتى النبى ﷺ يفرق فيه تمر قال: أين السـائل؟ قال: أنا قال: خذ هذا فتصدق به فقال: أعلى أفقر منى يارسـول الله؟ فوالله مابين لابتيها – يريد الحرتـين – أهـل بيت أفقر من أهل بيتى فضحك النبى ﷺ حتـى بدت أنيابه ثم قال: «أطعمـه أهل بيتك»[3] كما تتجلى معانى مراعاة تطور الحياة ومرونة التشـريع الإسـلامى وصلاحيتـه لكل زمان ومكان فى قـول الله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾[4] فالدواب والأنعام كانت وسائل النقل قديما، ولكن

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) سورة الشورى ٣٨.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) سورة النحل ٨.

القرآن أشـــار إلى ما ســيحدث من تطور بعد ذلك قبل أن تظهر الإكتشــافات الحديثة من ســيارة أو قطار أو طائرة أو صاروخ فقال: «ويخلق مالا تعلمون» وفى هذا تنبيه بل وتوجيه إلى البحث والاكتشــاف والاختراع فى وســائل الحضارة الحديثة. ويشير إلى تطور القوة فى كل زمان ومكان فى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

□□□

(١) سورة الأنفال ٦٠.

الدعوة إلى التعارف والتآلف بين الناس جميعا

ومن مرونة التشريع الإسلامى وسماحته :

دعوتة إلى التعايش السلمى بين الناس بغض النظر عن أشكالهم وأجناسهم ومعتقداتهم فخاطبهم بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فلم يقل «يا أيها الذين أمنوا ولا يا أيها المسلمون» بل قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] وبين أن الله تعالى كرم بنى آدم ولم يخص بالتكريم فئة دون أخرى بل قال ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[2] فدعا الإسلام الناس جميعا ليتعارفوا ويتألفوا ويتعاونوا على البر والحق والخير، ونشر السلام فى الأرض، حتى تعيش البشرية فى أمن واستقرار، لافى حروب ودمار . كما وضح القرآن الكريم علاقة المسلمين بغير المسلمين وهى علاقة البر والعدل حيث قال سبحانه : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3] وقرر الإسلام حق أهل الذمة – من غير المسلمين – فى التكافل الاجتماعى فقد روى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلا يهوديا كبيرا يسأل الناس، فسأله فى ذلك فعرف أنها الشيخوخة والحاجة ، فأخذه إلى خازن بيت المال، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال فى ذلك : «ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزيه شابا، ثم نخذله عند الهرم»[4] وهكذا يقرر الإسلام حق الضمان الاجتماعى لمن يعيش فى

(١) سورة الحجرات ١٣.
(٢) سورة الإسراء ٧٠
(٣) سورة الممتحنة ٨ ، ٩.
(٤) الخراج لابى يوسف.

رحاب الإسلام مسلما كان أو غير مسلم. وقد ارتضى فقهاء الإسلام قاعدة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. وحذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه من ظلم المسلمين لغيرهم من المعاهدين، الذين بيننا وبينهم عهد أمان، ومن انتقاصهم لحقوقهم أو تكليفهم فوق طاقتهم أو أخذ شيء منهم بغير طيب نفس فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»[1] ولغير المسلمين حقوقهم فى المجتمع الإسلامى لهم حق الأمان والحماية من أى عدوان داخلى أو خارجى سواء كانوا كتابيين أو مشركين، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2] ولطالما شهد التاريخ بمواقف المسلمين حيال حقوق غير المسلمين، فعندما تغلب التتار على الشام وأسروا بعض المسلمين وأهل الذمة ذهب الإمام إلى حاكمهم وكلمه فى إطلاق سراح الأسرى فأطلق أسرى المسلمين ومنع أسرى أهل الذمة، فأبى الرجوع إلا بإطلاق أسرى أهل الذمة وحصل له ما أراد. كما أعطاهم الإسلام حقهم فى التنقل فى دار الإسلام، وحقهم فى حرية العقيدة «لا إكراه فى الدين» وحقهم فى التعليم وفى العمل وفى الانتفاع بمرافق الدولة. وتجاه هذه الحقوق فإن عليهم واجبات تتلخص فى الرضا بالأحكام فى المعاملات، وترك ما فيه ضرر بالمسلمين أو مساعدة أعدائهم أو التجسس عليهم وعدم الإساءة إلى شعائر الإسلام بل يجب إحترامها، والدفاع عن دار الإسلام إذا داهمها العدو. وهكذا يدعوا الإسلام إلى أن يعيش الناس فى الحياة آمنين مسالمين، بل طالبهم بأن يدافعوا عن الحق والعدل وحقوق الإنسان، وأن ينصروا المظلوم وألا يعينوا الظالم، ولولا هذا الدفاع لضلت الحياة وهدمت قيمها ورموزها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى.

(٢) سورة التوبة ٦.

(٣) سورة الحج ٤٠.

مراعاة التطور والمرونة فى التشريع الإسلامى

إن مــن بين أحكام الشـريعة الإســلامية نوعا لا يتغير بتغير الأزمنــة ولا الأمكنة، بل يمثل الثوابت والأصول، ومنها ما يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة .فأما الثوابت التى لا تتغير فهــى الواجبات التى فرضها الله عقيدة وشـريعة وأخلاقا، والمحرمات التى حرمها الله، والحدود التى قدرها سبحانه. وأما النوع الآخر فهو الذى يتغير حسب ما تقتضية المصلحة زمانا ومكانا، كالعقوبات التى فوض الشــارع فيها ولى الأمر وهى ما تســمى بالتعزيرات، وكالأمور التى تتغير بتغير البيئة والزمان والمكان، ومن ذلك ما حدث من عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حينمــا كان واليا علــى المدينة فكان يحكم للمدعى بدعواه إذا جاء بشــاهد واحد وحلــف اليمــين فكانت اليمين تقوم مقام الشــاهد، ولكنه بعد أن تــولى الخلافة وأقام فى الشــام كان يحكم بشــهادة رجلين أو رجل وأمرأتين،فلما ســئل فى هذا قال: «لقد وجدنا أهــل الشــام على غير مــا عليه أهل المدينــة». ولما كان الإمام الشــافعى فــى العراق كان لــه مذهبــه القديم فلما جــاء إلى مصر كان له مذهبــه الجديد الذى يلائــم الزمان والمكان . ومن مراعاة التشــريع الإســلامى لأحوال الناس: أن رســول الله ﷺ كان يســأله عدة أشــخاص سؤالا واحدا ولكن إجابته كانت تختلف من إنسان لآخر مراعاة لأحوال الناس، فيجيــب البعض بقوله: «إطعام الطعام وإفشــاء الســلام» ويجيب غــيره بقوله «كف عليك لســان» ويجيب آخر بقوله «قل آمنت بالله ثم اســتقم» وهكذا نرى مراعاة التطور والمرونة فى التشــريع ضرورية إذ الجمود يصيب الحياة بالتوقف والعقم، وهذا التطور وتلك المرونة لا تكــون فــى الثوابت ولا العقائد ولا التحلل من الأحكام ولا مجافاة الفضائل إذ أن الأمور الواجبة والثابتة لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان حتى لا يفتح الباب للمفرطين والمتحللين.

وبعد: فإن الإســلام دين عالمى، اتسمت دعوته بالعموم وجاء دستوره السماوى وهو القرآن الكريم تبيانا لكل شيء، وبعث رسوله سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين، وخاتما للمرسلين فلا نبى بعده، لأنه جاء بكلمة السماء الأخيرة إلى الخلق قاطبة، تجلت شريعته الغراء فى

سماحة لا نظير لها، ودعوة للسلام فى الأرض والتعايش السلمى بين الناس، والصلاحية لكل زمان ومكان لأنها باقية فلا دعوة بعدها، وعامة للخلق أجمعين، وخالدة إلى يوم القيامة فاتسمت بالمرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، ونرى القرآن فى كل عصر كأنما أنزله إليه، إنه يشير إلى ما ستستكشفه العقول فى المستقبل من روائع المخترعات، وعجائب الاكتشافات، وكلها دلائل على الخالق للكون وللإنسان ولعقل هذا الإنسان وهو الله تعالى القائل ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(١) والقائل سبحانه ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).. بل جاءت تشريعاته تدعو إلى تعاون الناس جميعا ودعوتهم إلى السلام قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾(٣) وقال سبحانه ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(٤).. ورد الخلائق جميعا من بداية البشرية إلى قيام الساعة إلى أب واحد وأم واحدة فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾(٥)... وقال ﷺ: «كلكم لآدم» ليشعر البشرية جمعاء بأنها أسرة واحدة واجبها أن تتضامن وتتعاون لا أن يعادى بعضهم بعضا..

❑❑❑

(١) سورة فصلت ٥٣.
(٢) سورة النحل ٨.
(٣) سورة البقرة ٢٠٨.
(٤) سورة الأنفال ٦١.
(٥) سورة الحجرات ١٣.

شروط المجتهد

إن الاجتهاد لايبدأ من فراغ، ولا يعتمد على العقل وحده، وإنما يبدأ الاجتهاد بفهم ثاقب للأمور الجديدة، والأشكال الحديثة التى لم يرد نص فى شأنها، ويتم ذلك فى ضوء نظائر هذه الأشكال من كتاب الله تعالى وسنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ومن هنا فإنه لا يمكن أن يتأتى الاجتهاد إلا بمعرفة المجتهد لكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه. فلا بد أن يكون المجتهد حافظا لكتاب الله تعالى، وفاهما له فهما صحيحا بحيث يستطيع أن يجتهد ويستنبط الأحكام الشرعية منه. وأن يكون عالما بالحديث النبوى الشريف، وما اشتملت عليه مراجع السنة الصحيحة ودواوينها المعتمدة، وفى مقدمتها: الموطأ والصحيحان وباقى كتب السنة وأن يكون لدية الخبرة على استخراج الأحاديث من مظانها، والقدرة على تمييز الصحيح. وأن يحيط علمه بمسائل الإجماع حتى لا يكون مخالفا لما أجمع عليه العلماء من قبله. وأن يكون عالما باللغة العربية،ودلالة ألفاظها، والعام والخاص، والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل. كما ينبغى على المجتهد أن يكون عارفا بأصول الفقه، وكما قال الفخر الرازى: «إن أهم العلوم للمجتهد علم أصول الفقة» كما يشترط فى المجتهد أن يكون عالما بالناسخ والمنسوخ. ومن الشروط الهامة للمجتهد ما ذكره الإمام الشافعى رحمه الله فى قوله: «أن يكون ذو عقل حتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه... ومن أروع ما أثر عن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى ـ فى الدلالة على الإخلاص فى العلم والاجتهاد قوله:.. «وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نسب إلى شىء منه وما ناظرت أحد قط فأحببت أن يخطىء، وما كلمت أحد قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحدا قط وإلا وأنا لا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه» ولا يشترط فى الفقيه أن يكون متفوقا فى كل أنواع العلم بل حسبه التفوق فيما برع فيه ليجتهد فيه، فإن التخصص فى بعض علوم الشريعة عرف منذ العهد النبوى حيث قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «أرأف أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين

الله عمــر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علــى، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبــى، وأعلمهــم بالحلال والحرام معاذ بــن جبل، وإن لكل أمة أمينــا، وأمين هذه الأمة أبوعبيدة ابن الجراح»(١) ومن بين الأمور الدينية ما يجب على كل مسلم معرفته وعلى عامة المســلمين أن يحيطوا علما به كأركان الإســلام من صلاة وزكاة وصيام وحج وتحريم للكبائر من قتل وشرب خمر وزنا ونحو ذلك.. ومن بين الأمور ما لايدركه علم عامة الناس مما ليس فيه نص من الكتاب ولا فى أكثره نص من السنة وهذا ما يجب على المتخصصين من أهل العلم معرفته، وفى هذه الدائرة تتضح أهمية الاجتهاد. قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) ويتضح حكم الإجتهاد بأنه فرض كفاية على الأمة الإسلامية إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين.

❑❑❑

(١) رواه الترمذى وابن الأثير وأحمد وابن حبان.

(٢) سورة التوبة ١٢٢.

(٣) سورة النحل ٤٣.

مجال الإجتهاد

أما مجال الاجتهاد: فهو فى الأمور التى لم يرد فيها نص من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو الإجماع، فإذا وجد النص فلا اجتهاد مع النص، وكذلك الإجماع، لأنه إجتهاد جماعى فلا تصح مخالفته. والاجتهاد مهم فى كل عصر من العصور، نظرا لما يجد فى الحياة من أمور وما يظهر من مصالح للناس لا تنتهى، ومن أحداث تحتاج إلى رأى الشرع فيها.

وفى عصرنا الحاضر جدت أمور لم تكن على عهد سلفنا ولم يرد فى شأنها نص من كتاب أو سنة أو رأى للسلف، مما يستوجب على علماء الأمة أن يجتهدوا فيها. ولئن كان سلفنا قد بذلوا أقصى ما فى الوسع الإنسانى فى تحصيل العلم وربما رحل أحدهم مسيرة شهر من أجل حديث واحد، فإن الأمر بالنسبة لعلماء عصرنا ميسر بصورة واضحة، فقد دونت دواوين العلم وامتلأت المكتبات بكتب التفسير والحديث والفقه، فلا يوجد ثمة صعوبة فى الاجتهاد ولا عوائق تحول دون القيام به. وعصرنا الحاضر فى أمس الحاجة إلى الاجتهاد فى الأمور الجديدة، والوقائع الحديثة التى ظهرت أخيرا، ولم تكن موجودة قبل ذلك. وواضح أن حركه التطور فى الحياة سريعة، وأن البشرية تفاجأ كل حين باكتشاف جديد، ونظام حديث، ومعاملة لم تكن من قبل، وأشكال فى الحياة، وأنماط فى المعاملات لابد أن يلاحقها اجتهاد يتابعها ويوضح الحكم الشرعى فيها.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم لم ينزل لعصر دون عصر ولا لقوم دون قوم وإنما نزل صالحا لكل زمان ومكان ولجميع العالمين وكل المخلوقات فهو يصلحها ويوجه إلى إصلاحها، بهدايته إلى أقوم السبل، كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1] إنه الدستور السماوى، العلمى الذى جاء معجزة كبرى، وهداية للعالمين قال تعالى. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] بل إن القرآن الكريم نفسه دعا المؤمنين إلى السير والنظر فى

(١) سورة الإسراء ٩.

(٢) سورة يوسف ١٠٤.

الحياة، للوقوف على ما فى كتاب الكون المفتوح والمنظور من دلائل يدركها كل ذى عقل تدل على أن لهذا الكون إلها خلق فسوى وقدر فهدى، ودعا القرآن أتباعه أن ينظروا فى ملكوت الله وخلقه فى السموات والأرض، وفى نفس الإنسان، فقال جل شأنه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(1) ومع ما يعيشه العالم الآن من انفجار معرفى وتسابق حضارى، واكتشافات إثر اكتشافات، وتقدم فى وسائل العلم الحديث مع هذا كله لابد من متابعة المجتهدين من العلماء، بالشريعة الإسلامية الغراء، حتى يظل هذا التقدم الهائل منضبطا بضوابط الحق والعدل، مصونا من أساليب الباطل والظلم، لأن هذا التقدم العلمى سلاح ذو حدين، يمكن أن يكون تقدما لخدمة البشرية، فيقدم لها كل جديد فيما ينفعها فى خدمات طبية وعلاجية، أو فى وسائل حضارية تختصر المسافات، وتقدم الراحة لبنى الإنسان، وتوفر كثيرا من الزمن والمعاناة...

كما يمكن أيضا أن يستغل هذا التقدم الحضارى فيما يضر بالبشرية فينتج - مثلا - أسلحة الدمار الشامل، ويستغل التقدم المادى فى عوامل تخريب البشرية ودمارها ولا خلاص للإنسانية من هذا إلا بأن تظل تعاليم الإسلام وما دعت إليه الأديان من قيم ومبادىء، وعقائد وتشريعات وسلوك وأخلاق، أن تظل هذه التعاليم حاكمة على السلوك الإنسانى، لأن الإنسان - بلا وحى إلهى - بشر يخطىء ويصيب ويتأثر بالنوازع والأهواء، لكنه حين يكون متمسكا بتعاليم الوحى يرى أنها تدعوه إلى الحق فلا يجور على الآخرين، تدعوه إلى العدل فيبتعد عن الظلم تدعوه إلى السلام فلا يشن الحروب لأتفه الأسباب، بل يحرص أن يعيش فى سلام شامل وعادل. إن عالمنا الإنسانى يجب أن يقدم المجتهدون من العلماء، والمخلصون من الرواد له ما يجعله يشعر أننا جميعا أسرة واحدة شرقا وغربا وعربا وغير عرب مسلمين وغير مسلمين كلنا جميعا نرجع إلى أصل واحد، وآدم عليه السلام هو والد الجميع إن أصلنا واحد، وإن آبانا جميعا واحد، وإن أمنا واحدة، ﴿يَا أَيُّهَا

(1) سورة الذاريات ٢٠، ٢١.

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[1]
إن الإسلام لا يتعارض مع حركة التطور والتجديد ولا مع العلم الحديث، بل إنه يدعو إلى التقدم وإلى مزيد من العلم، لقد كانت أولى أيات الوحى الآلهى التى صافحت قلب رسولنا صلوات الله وسلامه عليه دعوة للعلم والمعرفة والقراءة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[2] وما طلب الله من رسوله ﷺ أن يدعوه طالبا منه المزيد إلا من العلم (وقل ربى زدنى علما) ودعا القرآن أن تسير وتنظر فى ملكوت الله كما دعا الأمة إلى الاكتشاف والتقدم وأنه سيطلع خلقه على أسرار فى ملكوت السموات والأرض وفى خلق أنفسهم ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[4]، وكل جديد يحتاج إلى بيان للحكم الشرعى، فواجب المجتهدين أن يقدموا عطائهم الفكرى لكل جديد فى ضوء الكتاب والسنه. وقد جد على الساحة الدولية بعض الظواهر التى تستوجب على أهل الإجتهاد وعلى المسئولين أن ينهضوا ببيان الحقائق ودحض الأباطيل، فمن ذلك ظواهر التطرف الإرهابى، التى كادت تكون ظاهرة عالمية يجب أن تقاوم، وأن نعمل – متعاونين – على نشر السلام والأمن والإستقرار، لقد لخص الله دعوة الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فى الرحمة بالعالمين، جميع العالمين على إختلاف أنواعهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[5]. وحرص الإسلام على نشر مبادئه السمحة بالقدوة قبل الكلام والتوجيه... ومن الاجتهادات المعاصرة التنويرية الهامة تفعيل الدور الإسلامى لعرض الإسلام وتوجيهه لكل العلاقات والمعاملات الجديدة، ودحض المقترحات التى تنقل عن الإسلام، وما يتردد

(١) سورة الحجرات ١٣.
(٢) سورة العلق ١، ٥.
(٣) سورة فصلت ٥٣.
(٤) سورة النحل ٨.
(٥) سورة الأنبياء ١٠٧.

مــن أنــه دين العنف والعكس صحيح فهو دين الرحمة والســلام.. كيف وهو الذى دعا إلى الرحمة والتســامح، وجعل سمات المسلم أن يسلم الناس من لسانه ويده، وعلامة المؤمن أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

❑❑❑